

دور كلية غردون ومعهد بخت الرضا في تعليم غير السودانيين

د. محاسن عبد القادر حاج الصافي

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الخرطوم - السودان

يركز هذا البحث على دراسة الدور الذي أدته المؤسسات التعليمية السودانية لاسيما كلية غردون^(١)، ومعهد بخت الرضا^(٢)، في تعليم غير السودانيين في مستعمرات عدن وحضرموت والصومال.

في مقال كتبه المرحوم مكاوي سليمان أكرت ضابط حكومة محلية سابقاً -إلى السكرتير الإداري بالخرطوم في ٢٤ سبتمبر ١٩٤٣م، نشرته صحف "السودان ستار" و"النيل" و"صوت السودان" بعنوان "The Sudan: A Good Neighbour"^(٣)، تحدّث فيه عن إسهام السودان ومساعدته لجيرانه في عدن وحضرموت والصومال في مجال التعليم والثقافة.

رسمت هذه الدول الثلاث سياساتها التعليمية على النمط السوداني، وكان هذا أمراً ضرورياً في المراحل الأولى من بنائها. وجاء العون السوداني متمثلاً في إرسال معلمين ونظار مدارس. ومن ناحية أخرى كان لابد من الموازنة بين ضرورة تطوير وتنمية السياسة التعليمية داخل السودان وبين حاجة تلك الدول لمعلمين منه، وكان لزاماً أيضاً البحث عن الأماكن المتاحة في المدارس السودانية لاستقبال طلبة من الخارج. ومع ضعف إمكانات السودان فإنه استطاع تثبيتها في معظم الأحيان، لاسيما في مجال توفير معلمي اللغة العربية والإنكليزية، الأمر الذي كان محل تقدير وعرفان.

أنشئت في عدن في أبريل من عام ١٩٣٦م، كلية أبناء السلاطين والرؤساء والقبائل - التي عرفت بمدارس جبل حديد^(٤)، اختير لها مدرس سوداني هو المرحوم عبد القادر أوكير^(٥)، من شرق السودان - الذي أعير لمدة خمس سنوات ناظراً للكلية، وكسب سمعة طيبة ولما عاد للسودان عام ١٩٤٠م، خلفه في هذا المنصب الأستاذ السوداني حسن فريجون، كذلك كان في عدن المدرس السوداني أحمد محمد نور، الذي أشار الدكتور نزار غانم صاحب كتاب "جسر الوجدان" إلى نشره عدداً من المقالات في مجلة "الأفكار". كما أشار إليه أيضاً رائد الصحافة العدنية، المرحوم محمد علي لقمان المحامي، في مذكراته عن رحلته لأرض العوائل عام ١٩٤٥م. أكمل أحمد محمد نور تعليمه بكلية غردون وقضى عاماً فوق الثانوي (تدريب معلمين)، ثم عين ناظراً لمدرسة بورتسودان الوسطى وعمل في وظيفة مساعد ناظر بكلية عدن.

ومن الذين عملوا بالتدريس من السودانيين بعدن، الأستاذ والرياضي مبارك فضل الله، الذي أسهم بجانب التدريس في الحركة الوطنية لتحرير جنوب اليمن من المستعمر الإنكليزي^(٦)، وأسهم أيضاً في التدريس المدرس مصطفى محمد فضل، وفي لحج يذكر عبد الرحمن جرجره في كتابه: "أرضنا الطيبة هذا الجنوب"، وجود المعلمين بأعداد

قليلة. وفي الخمسينيات استقر المدرس عبد الرحيم الباهي وزوجته وعملاً طويلاً في سلك التدريس في شمال اليمن (المملكة المتوكلية اليمنية)، وكانت مستقلة^٦ عن النفوذ البريطاني.

عندما عقد الإنكليز عام ١٩٣٧م، معاهدة الاستشارة مع دولتي حضرموت: السلطة القعيطية وعاصمتها المكلا، والسلطة الكثيرية وعاصمتها سيئون، اللتان تتبعان لمستعمرة عدن -أرادوا إدخال التعليم الحديث في سياسة الاستعانة بأساليب المؤسسات الحديثة. عليه قام المستر اتمبرو، مدير مصلحة المعارف بعدن ومعه الأستاذ عبد القادر أوكير، المدرس بمدرسة أبناء السلاطين في عدن آنذاك، بزيارة إلى حضرموت. وكانا يعتقدان أن هناك تشابهاً بين المحميات المجاورة ومستعمرة عدن. ولكنهما وجدا أن ظروف حضرموت قاسية ولا تساعد على نشر التعليم الحديث فطلب المستشار البريطاني إرسال خبير تربوي ليضع خطة لتطوير التعليم في حضرموت لمدة عشر سنوات. ثم الاتصال بحكومة السودان التي أرسلت لهم المستر جريفت عميد معهد بخت الرضا. وصل المستر جريفت إلى حضرموت عام ١٩٣٨م، ووضع تقريراً عن واقع التعليم هناك^(٧). حدّد التقرير أهداف التعليم في حضرموت التي تتمثل في سدّ حاجة البلاد من الموظفين الحكوميين عن طريق تعليم أعلى من المرحلة الأولية ويكون مجانياً، وإلى إتاحة الفرصة لقلّة مختارة لتتلقى تعليماً أعلى لتشغل، فيما بعد، الوظائف المرموقة، إلى خلق نوع من الاستعداد للاهتمام بالزراعة عن طريق مدارس ريفية. ومن أجل تحقيق تلك الأهداف تقرر إدخال نظام التعليم المتّبع في السودان للأسباب الآتية:

أولاً: ضرورة الاعتماد على نظام تعليمي في بلد عربي مع تعديله عند الحاجة.

ثانياً: وجود تشابه كبير بين السودان وحضرموت من ناحيتي الطقس والتطور.

ثالثاً: استطاع السودان خلق نظام تعليمي متطور ولديه وإمكانات لتدريب المعلمين.

رابعاً: تتناسب الكتب الدراسية السودانية مع الواقع الريفي الحضري^(٨).

رشح المستر جريفت، الشيخ القدال سعيد القدال للذهاب إلى حضرموت لتنفيذ تلك المهمة، فوصلها عام ١٩٣٩م، وعمل مساعداً للمستشار للشؤون الثقافية، مما جعله مسؤولاً عن التعليم في كل الدولة القيعطية والدولة الكثيرة. ثم عينه سلطان حضرموت ناظراً للمعارف بالدولة القيعطية. كانت مهمة الشيخ القدال، الذي كان معلماً في الدرجة (A)، هي إعادة تنظيم مدارس المكلاً ولاسيما إنشاء مدارس ثانوية صغرى وتدريب المعلمين في سيئون وغيل باوزير.

لحقت بالشيخ القدال كوكبة من المدرسين السودانيين ورد ذكرهم في الوثائق البريطانية أمثال: المرحوم حسين خوجلي، الذي عمل مديراً لمدرسة غيل باوزير الوسطى بحضرموت، وكان ناظراً بمدرسة رفاعة الوسطى بالسودان. كما عمل مدرساً بكلية غردون لمرحلة ما بعد الثانوي.

أعير أيضاً الشيخ عوض عثمان مكي من خريجي معهد بخت الرضا، في الدرجة الثانية -أعير إلى حضرموت المكلاً- وهو صهر الشيخ القدال يعود الفضل للشيخ عوض عثمان مع الشيخ القدال في إدخال المسرح المدرسي وإصدار صحيفة الحائط الطلابية^(٩). كما أعير أيضاً المرحوم محبوب زيادة حمور وسيد أحمد صادق، مدرساً في غيل باوزير، وقد أسهم إلى جانب محبوب زيادة في النشاط المسرحي المدرسي: أعير أيضاً الشيخ أيوب سعيد القدال، الذي تمّ ترشيحه بمعية الشيخ حسين أفندي خوجلي للعمل بمدرسة غيل باوزير، وهو من خريجي بخت الرضا، وله ملكات فنية وموسيقية. ومن الذين عملوا في حضرموت أيضاً المرحوم الدكتور سيد أحمد نقد الله -عمل خلال الفترة ١٩٥١م -١٩٥٣م، والرحوم الأديب الدبلوماسي جمال محمد

أحمد، كما وفد إلى حضرموت أيضاً أمين عبد الماجد، الذي عمل ناظراً للمعارف في سيئون . وكذلك الأستاذ عمر البناء، والشاعر الراحل عبد القادر ابراهيم تلودي.

بالإضافة إلى إرسال المعلمين لعدن وحضرموت فقد استقبل السودان طلاباً من تلك البلاد بغرض تدريبهم ليصبحوا معلمين في المراحل الأولية والوسطى^(١٠). وجاءت أول دفعة إلى السودان في عام ١٩٣٦م، وأرسلت عدن أحد الطلاب للتدريب بمعهد بخت الرضا. وفي عام ١٩٤٣م، ضمت كلية غردون ستة طلاب من عدن وحضرموت تخرج منهم اثنان عام ١٩٤٥م، وكذلك قُبِلَ اثنان من الطلاب في المرحلة الوسطى في الأربعينيات.

ومن الطلاب الذين رشحوا من عدن للقبول لكلية غردون، ناصر ابن الشيخ سيف بن علي البوعلي، وذلك بمقتضى خطاب من السكرتير الإداري بعدن إلى السكرتير الإداري بالخرطوم في ١/٢/١٩٤١م. ويشير خطاب آخر من الحاكم العام بعدن في يوليو عام ١٩٤٧م، إلى أن اثنين من العدنيين هما الشاعر المرحوم نجيب جعفر أمان وعلي محمد صالح وهما معلمان بكلية عدن. كانا قد تلقيا تعليمهما في معهد بخت الرضا عام ١٩٣٥م، والتحقا بكلية عدن منذ عام ١٩٣٩م، وفي عام ١٩٤٦م. كانت البعثات الدراسية بالسودان من جنوب اليمن وتشمل الحضارمة والعدنيين وأبناء المحميات، وكان عددهم ثلاثين طالباً. أما الطلاب من حضرموت فقد التحق منهم أربعة بمعهد بخت الرضا في الأربعينيات لينتم تدريبهم ليصبحوا معلمين في المراحل الأولية. قُبِلَ كذلك اثنان من الطلاب خلال الفترة ١٩٣٩م-١٩٤٠م، بكلية غردون لمدة أربع سنوات، وتقرر أن يقبلوا عام ١٩٤٧م، في المدارس العليا لمدة ثلاث سنوات، ويذكر الدكتور محمد عبد القادر بافقيه أن أهم من خدم حركة التعليم في حضرموت هم خريجو بخت الرضا، الذين جاؤوا من المكلا وتعلموا، فأصبح كل واحد منهم عالماً

مستقلًا، من الموهبة والمزاج، أمثال مديحج - القحوم - حورة - أحمد سعيد، اليماني - حديني، ابن سلم وآخرين^(١١).

كانت المنح التي توفر للطلاب من عدن وجنوب الجزيرة تأتي من المجلس البريطاني الذي وفر فرصاً للتدريب بمعهد الرضا وكلية غردون، كما وفرت حكومة حضرموت فرصاً للتدريب ببخت الرضا غير أنه وكما يبدو لم تتحمس الإدارة البريطانية لترشيح الطلاب من جهات غير رسمية مثل الطلبات التي أرسلها محمد علي لقمان المحامي ورئيس فرع نادي الإصلاح العربي الإسلامي وأخرى من الأديب محمد سعيد الأصبغ رئيس فرع آخر لنفس النادي في عدن. أرسلت هذه الطلبات للزعيم السياسي والديني السوداني السيد عبد الرحمن المهدي ولكنها لم تكال بالنجاح^(١٢).

تشير التقارير في الوثائق السودانية إلى أن السلطات في جنوب الجزيرة العربية تواجه صعوبة في إقناع الطلاب بالسفر خارج بلادهم لتلقي التعليم نسبة لتردد أسرهم في السماح لهم بالسفر غير أنه يتضح من التقارير أن تلك المجموعة التي أسعدها الحظ بالحاق بمعهد بخت الرضا قد أظهرت مستوى جيداً من الأداء.

أسهم الشيخ القدال في تطوير تعليم المرأة وفي هذا الصدد كتب الشيخ عبد الله الناجبي وهو المؤسس الأول لتعليم البنات في حضرموت يقول:

"في عام ١٩٣٥م، بدأت في تعليم كريمتي وزوجتي بنفس النظام الذي تسير عليه المدارس في ذلك الوقت. وبكثير من العناية وبمساعدة المدرسين وتشجيعهم وصلت بهما إلى إكمال المقررات التي كان مفروضة على مدارس البنين وخوفاً من ضياع هذا الجهد جلبت عدداً من الفتيات اللاتي لنا بهن صلة القربى أو الجوار، وكلفت كريمتي وزوجتي بتعليمهن، وكانت الفكرة مستكرة ومكروهة من الرأي العام وحوربت من الجامدين، ولكنها استمرت، وبعد مضي سنوات كان عدد الطالبات يربو

على التسعين طالبة. وتشاء الأقدار أن يصل الشيخ القدال من السودان لوضع الأنظمة الملائمة للمدارس في حضرموت... شاء الله أن يقوم بتشجيع هذه المدرسة وإسداء المعونة لها شيئاً فشيئاً حتى تم إلحاقها بمدارس الحكومة^(١٣).

بالإضافة إلى إرسال المعلمين واستقبال الطلاب من عدن وحضرموت للتدريب داخل هذه البلاد يتضح من التقرير السنوي لمصلحة المعارف بالمكلا للعامين ١٩٤٥/١٩٤٦م، والذي اختطه الشيخ القدال بوصفه مديراً للتعليم هناك إلى اعتماد مدارس تلك البلاد على الكتب الدراسية والمراجع السودانية ولاسيما إصدارات بخت الرضا للمراحل الابتدائية والمتوسطة في الرياضيات والجغرافية والتاريخ مع التعديل حتى تتلاءم مع أوضاع تلك البلاد.

تشير الوثائق أيضاً إلى حرص مصلحة المعارف في السودان على المستوى الجيد من الأداء حفاظاً على سمعة التعليم في السودان. وعليه يتم اختيار المعلمين المعارين في دقة تامة ولم يُرسل إلا المعلم ذو الكفاءة العالية ورُفِضت طلبات من لم تثبت كفاءتهم في مجال التدريس، كما تمت دراسة خلفياتهم الأسرية وعلاقاتهم وسلوكهم العام.

من ناحية أخرى حرصت المصلحة على وصول تقارير الأداء بصورة منتظمة عن هؤلاء المعارين، ويقف التقرير الذي أرسله عمر محمد باحشوان، مساعد المشرف على التعليم بمكتب المكلا إلى السكرتير الإداري بالخرطوم حول أداء الشيخ عوض عثمان مكي خير شاهد على ذلك. جاء في ذلك التقرير أن الشيخ عوض عثمان يدرّس المرحلة الوسطى مواد الفيزياء والرياضيات للمستويات الأعلى ويشهد له بالكفاءة وحرصه على تنمية قدرات الطلاب من خلال تكوين جمعيات أدبية ساعدت على رفع مستواهم، كما أسهم الشيخ عوض أيضاً في وضع عدد من المقررات التي كانت تدرّس في مدارس المكلا.

اشتهر كذلك الشيخ القدال "سعيد القدال" بالسمعة الطيبة والأداء المتميز، وفي عام ١٩٥٠م، قام المستر جريفت بزيارة إلى حضرموت بدعوة من المستشار البريطاني ليقوم بتقويم ما تم إنجازه من الخطة التي وضعها عام ١٩٣٨م، ومدى نجاح الشيخ القدال في تنفيذها، فكتب المستر جريفت قائلاً:

"لقد تم تقدم حقيقي خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية. وإنه لمن حق منطقة القعيطي ومدير تعليمها الكفاء الشيخ القدال أن يفخرا بما أحرزاه^(١٤).

تحدث عنه كذلك المستر أنجرامس والمستر بوستيد البريطاني في تقريره السنوي عام ١٩٥١م، ولفت النظر إلى إنجاز هام للشيخ القدال حيث استطاع أن يهيئ لإدارة المعارف مديراً حضرمياً وفريقاً من المدرسين والمديرين للمدارس الابتدائية من الحضارمة ومعظم هؤلاء كانوا من تلاميذه الذين أشرف عليهم. وكتب حضرمي - وهو الأستاذ محمد عبد القادر بامطرف يقول:

"ولا يفوتني أن انوه بما للقطر الشقيق السودان من فضل على النشاط التربوي في حضرموت. فما من فرع من فروع الثقافة الحديثة في البلاد الحضرمية إلا ونجد فيه للشيخ القدال اليد الطولى في تأسيسه ورعايته، إن التنويه بخدمات هذا الشيخ الفاضل وخدمات صحبه من إخواننا السودانيين في حقل التربية والتعليم ذمة في عنق كل حضرمي يعترف بالفضل لذويه"^(١٥).

في عام ١٩٤٤م، أنعم السلطان القعيطي على القدال بلقب باشا، ثم عينه بعد ذلك بسنوات، سكرتيراً للدولة، حتى رحل عن حضرموت، عائداً إلى السودان عام ١٩٥٨م.

دور المؤسسات التعليمية السودانية في تعليم الصوماليين:

كان التعليم في الصومال قبل استحداث النظم التعليمية الحديثة -دينياً- يهدف إلى نشر مبادئ الدين الإسلامي وكانت أهم مراكز الإشعاع الديني في الصومال هي مدينتي هرر ومقديشو. بدأ التعليم الديني يتطور تدريجياً على أيدي بعض المدرسين الصوماليين وبدأ هذا التطور قبل بداية التعليم الأكاديمي في عهد الاستعمار وتشير المصادر الصومالية إلى الدور الذي قام به المدرس السوداني خير الله إذ فتح أول مدرسة نموذجية في الصومال الشمالي في مدينة بربرا عام ١٨٧٢م، ومن تلامذته الأستاذ محمود أحمد علي الملقب بأب التعليم في الصومال، وشيخ علي إبراهيم^(١٦).

تذكر فوزية يوسف آدم^(١٧)، في مقال لها أن رحلة التعليم النظامي في الصومال الشمالي بدأت عام ١٩٣٨م، عندما تقابل المرحوم محمود أحمد علي ووالدها يوسف آدم في السودان حيث كان يدرس كلاهما. اتفقا على بدء التعليم بالمرحلة الأولية بصورة قاطعة رغماً عن المعارضة القوية من الصوماليين لنظام التعليم الغربي الأوروبي. وقبل ذلك فشلت المحاولة التي قام بها المبشرون الكاثوليك في عام ١٨٩١م، مما أدى إلى إغلاق المدرسة التي قاموا بإنشائها في عام ١٩١٠م.

بعد أن فشلت محاولة إنشاء مدرسة ابتدائية في بربرة بواسطة الحكومة الاستعمارية أصرّ الأستاذان محمود أحمد علي ويوسف آدم على إنشاء المدرسة الابتدائية الأولى في هرجيسا عام ١٩٤٢م. وبعد نجاح هذا المسعى طلب من الإدارة الاستعمارية أن يزور وزير التعليم الصومالي ثم أرسل المستر Ball من قبل الإدارة البريطانية فوضع نظام التعليم في الصومال بفتح المزيد من المدارس الابتدائية والوسطى.

لم تتم إعاة مدرسين سودانيين للصومال آنذاك ولكن منذ عام ١٩١٩م، قبل ستة طلاب صوماليين في كلية غردون. وفي الفترة ما بين الأعوام ١٩٢٠-١٩٣٨م، قبل

بعض الطلاب الصوماليين في مدارس الخرطوم في المراحل الابتدائية والوسطى وفي كلية غردون، وقد تدرب هؤلاء الطلاب ككتبة وفي مجال القضاء والهندسة وضمت بخت الرضا أربعة طلاب صوماليين تلقوا تدريبهم هناك.

استفاد الصوماليون خاصة من المحمية الشمالية البريطانية من المؤسسات التعليمية التي أنشأها البريطانيون في السودان أثناء فترة الحكم الثنائي، وذلك تبعاً لوضعهم كذلك تحت الإدارة البريطانية. وصل إلى كلية غردون عام ١٩٢١م، محمود أحمد علي، ثم علي شيخ موسى وعمر الصومالي. وأصبح محمود أحمد علي أول مدير للتعليم في الصومال، ولقب بأب التعليم هناك الصومال كما أسلفنا، كما صار من رواد الحركة الوطنية الصومالية.

في الأربعينيات جاءت دفعة أخرى ضمت عبد الرحمن أحمد علي، أول رئيس لجمهورية أرض الصومال التي انشقت عن جسم الدولة عام ١٩٩١م، في أعقاب الحرب الأهلية وانتهيار الدولة في الصومال.

لم تتخلف المرأة الصومالية عن الركب حيث جاءت إلى السودان طالبة للعلم -راقية حاج دو عالي وأمنة حاج آدم والتحقنا بكلية المعلمات بأمر درمان في بداية الستينيات من القرن العشرين^(١٨).

كذلك تشير وثائق وزارة الداخلية ومصلحة المعارف بالسودان إلى وجود عدد من الطلاب الصوماليين ببخت الرضا منهم محمد حاج حرسى ويوسف اسماعيل بشيري^(١٩).

استفادت الصومال كذلك من المناهج السودانية وقررت المناهج بالمدارس الصومالية استناداً إلى المنهج السوداني. واحتاجت الصومال خاصة في أثناء فترة الإدارة العسكرية البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية إلى استعارة معلمين في اللغة العربية

من السودان بعد أن فشلت محاولات توفير معلمين من مناطق أخرى مثله زنجبار لعدم وجود الكادر المؤهل هناك.

ما ذكر أعلاه يشير بوضوح إلى دور كلية غردون ومعهد بحث الرضا في تدريب وتعليم الصوماليين منذ بدايات التعليم الحديث في الصومال. غير أننا نجد من الوثائق البريطانية ما يشير إلى محاول بعض الإداريين العسكريين البريطانيين في أثناء فترة الإدارة العسكرية البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية -بتعصبهم العرقي والديني محاولة الإساءة إلى أو التقليل من ذلك الدور. وفي مذكرة كتبها بعضهم أشاروا إلى أن الصوماليين لا ينتمون إلى قبائل البانتو، ولا هم من أصل أفريقي، ولكنهم من أصل حامي سامي حسب تقرير الجمعية الأنثروبولوجية البريطانية بكل الذكاء والمقدرة التي تؤهلهم للرقى والتقدم التعليمي والاقتصادي كما هو عند الأعراق الأخرى الآسيوية في الهند والجزيرة العربية: واستناداً إلى هذا، يرى كابنتو المذكرة أن:

"كلية غردون في الخرطوم لا تقوى على استيعاب هذه الشعوب التي تحتاج إلى تعليم في شمال وشرق إفريقية. على كل فإن موقعها لا يؤهلها لقبول العرب والمستعربين Near Arabs ليست فقط لسبب بعدها من خليج عدن ولكن لأن العرب والـ Near Arabs لا ينظرون إلى السوداني -ذي الشفاه الغليظة- سوى أنه عبد ولو كان ذكياً. الضباط الإداريون في السودان ككل لا يستطيعون فهم هذه المسألة- ولكن بفهم قليل للصومالي والعربي الجنوبي سوف يقتنعون قريباً بأن تعليمياً إسلامياً خالصاً في قراهم أو في حضرموت هو في واقع الأمر أرفع من أي تعليم أوروبي وأرفع بكثير من أي تعليم يتلقونه من عناصر (races) عرفوهم فقط بأنهم عبيد يباعون في موانئ الجانب الغربي من الجزيرة العربية"^(٢٠).

يتضح جلياً من هذه المذكرة روح الكراهية والحقد الاستعماري ودأبهم للتفرقة بين الشعوب ولو كانت في درجة من التقارب العرقي والثقافي والديني الذي يربط بين السودان والصومال عبر التاريخ.

جدير بالإشارة إلى أن هذه المذكرة كتبت خلال فترة الحرب العالمية الثانية - فترة النضال الوطني، وحركة التحرر من الاستعمار. ويعلم هؤلاء الإداريون البريطانيون خطورة وجود طلاب صوماليون في السودان في تلك الفترة التي اشتدت فيه حركة النضال الوطني في السودان ممثلة في مؤتمر الخريجين. ولذا سعوا لمنع إرسال المزيد من الطلاب الصوماليين للسودان، أو ربما لجهل منهم بتدفق هؤلاء الطلاب منذ وقت مبكر، كما أوضحنا أعلاه. وبالفعل أصبح محمود أحمد علي أحد رواد الحركة الوطنية ثم عبد الرحمن أحمد علي أول رئيس لجمهورية أرض الصومال.

وفي عام ١٩٤٩م، وفي أثناء زيارة السير توماس لويد لبربرة - ضمن زيارة كبار المسؤولين البريطانيين للمستعمرات، تقدم زعماء وشيوخ الصومال في مركز بربرة بمذكرة تتضمن مطالبهم فيما يتعلق بشؤونهم الإدارية المختلفة ومن ضمنها التعليم، وقد أشار السير توماس إلى أنه حتى ذلك التاريخ تم إفاد أربعة من الصوماليين إلى المملكة المتحدة، وأحد عشر صومالياً للدراسة بالسودان، وأوضح أن تكلفة تعليم الطالب الصومالي في المملكة المتحدة تبلغ خمسمائة جنيه استرليني سنوياً آنذاك. لذا اقترح السير توماس إلحاقهم بالتعليم العالي في مناطق قريبة من الصومال حيث يمكن تأهيل عدد أكبر^(٢١).

ومن الواضح أن السياسة البريطانية في القرن الإفريقي آنذاك كانت تهدف عموماً إلى إيقاف المدّ الناصري (المصري) والشيوعي في إفريقية المدارية^(٢٢).

فالبريطانيون كانوا يتخوفون من أن المصريين (وبدرجة أقل الروس) يعتبرون القرن الإفريقي هدفاً مهماً ويبدلون جهداً كبيراً لمدّ نفوذهم هناك، كما أنهم يركزون على الصومال الجنوبي والمحمية خاصة - حيث أرسل المصريون خمسة وثمانين مدرساً مدفوعي الأجر ليعلموا في المدارس والمراكز الإسلامية في الصومال، وفي الوقت نفسه يقومون بتعليم المئات من الطلاب الصوماليين في مصر، ولمجابهة هذا الوضع انتهجت السياسة البريطانية النهج الآتي:

أولاً: دفع عون مالي للصومال يقدر بـ ١٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً في شكل عون اقتصادي بعد الاستقلال في ١٩٦٠م.

ثانياً: زيادة المعلومات والنشاط الثقافي البريطاني في القرن الإفريقي بمبلغ قدره ١٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً.

ثالثاً: يرى القسم الإفريقي بوزارة المستعمرات زيادة النشاط البريطاني خاصة في يتعلق بالتعليم حيث خطت مصر خطوات واسعة وحقت نجاحاً كبيراً بصرف مبالغ أكبر بكثير مع إرسال معلمين بأعداد أكبر.

يعترف الإداريون البريطانيون بفشلهم في دعم الصومال في مجال التعليم والتدريب المهني والفني. وبما أن عدد الصوماليين المتعلمين الذين يتحدثون اللغة الإنكليزية كان قليلاً فإن إمكانية استفادتهم من الفرص التي يمكن أن تمنحها لهم بريطانية كان قليلاً أيضاً. لهذا السبب تم بحث إمكانية إرسال الطلاب الصوماليين لإيجاد فرص للتدريب في دول شرق إفريقية البريطانية، حيث فرص التعليم أكثر ملائمة. وذكر أنه يمكن إرسال نحو مئة وستة وثلاثين طالباً إلى هناك، ولكن كانت هناك بعض المحاذير تقف أمام إرسال هؤلاء الطلاب لبعض دول شرق إفريقية خاصة كينية للأسباب الآتية:

أولاً: الخوف من التأثير السياسي على هؤلاء الطلاب، لذا كان لابد من ترشيحهم بواسطة الحكومة الصومالية الاستعمارية، على الرغم من معارضة المجلس البريطاني لهذا الاقتراح.

ثانياً: الخوف من عودة الطلاب الصوماليين من شرق إفريقية وهم منحازون ضد بريطانية. كان هذا يشكل خطراً حقيقياً لا بد من مواجهته بقوة.

ثالثاً: لا بد من تجنب إرسال الصوماليين لأي من بلدان شرق إفريقية والمناخ السياسي غير ملائم فيها. مثلاً تجنب إرسالهم واحتكاكهم بالصوماليين الرحل في المنطقة الشمالية الشرقية في الحدود الكينية الصومالية لأنهم ضد بريطانية بشكل مريع. أو إلى أي مكان تمارس فيه تفرقة عنصرية.

وقد ثبتت صحة هذا الزعم حيث أشار تقرير مترجم من الإيطالية في أبريل ١٩٥٩^(٢٣)، في مقال Cyclostyled في مجلة طلابية "الطالب" وهي مجلة شهرية تصدرها منظمة الطلاب الصوماليين، بعنوان "ثورة الطلاب الصوماليين ضد التفرقة العنصرية". صدر المقال في مقديشو بتاريخ ١٩ أبريل ١٩٥٩م، ويشير المقال إلى أن اثنين من الطلاب حصلوا على منح من المجلس البريطاني للدراسة في المدرسة التجارية بموشي -تجانيقا وهما علي عبد الله علي ونور مؤمن، وجدا أنه لا يمكن أن يقبلا بالظروف السكنية والمعيشية التي وفرت لهم. ففي شرق إفريقية البريطانية كانت تمارس تفرقة عنصرية واضحة، ويظهر ذلك في تقسيم المدارس لثلاث مجموعات: مدارس للأوروبيين، مدارس للأسويين ومدارس للأفارقة. وتختلف معاملة الطلاب حسب التقسيمات المذكورة.

وُضع الطالبان علي ونور مؤمن مع الطلاب الأفارقة، ولكنهما فُوجئا بالأوضاع السيئة فيها من سكن وإعاشة لهذا بدأ الطالبان في الاحتجاج وساعدهما بعض أعضاء الجالية

الصومالية في موشي، ونقل أفراد الجالية الطالبين إلى أحد الفنادق حتى تقوم السلطات البريطانية بإعادتهم إلى بلادهم.

يبدو مما سلف أن مقترح إرسال الطلاب الصوماليين لدول شرق إفريقية قد اكتتفته بعض المشاكل والمحاذير التي تتلخص في أسباب سياسية وأخرى ترتبط بسياسة التفرقة العنصرية التي انتهجتها بعض تلك الدول، ومع حساسية بريطانية المفرطة من هيمنة الأثر المصري وانتشار المذّ الثقافي المصري في القرن الإفريقي، فقد عادت بريطانيا للاهتمام بإرسال الطلاب الصوماليين للسودان. وفي برقية من الخارجية البريطانية إلى الخرطوم يرد ما نصه:

"نحن نناقش مع الولايات المتحدة والحكومة الإيطالية الطرق والوسائل التي يمكن عن طريقها وقف الأثر المصري في الصومال - والتأكيد على علاقة ودية مع الصومال بعد الاستقلال في ١٩٦٠م، من المقترحات التي ندرسها هو مذهب الصومال بعون تعليمي وثقافي، في هذا المجال أحرز المصريون تقدماً كبيراً وملحوظاً. في محادثات واشنطن بين بريطانيا وأمريكا حول الموضوع اقترح الأمريكي أن ربما وفرت حكومة السودان عوناً في مجال التعليم للصوماليين. وقد وجّه السفير الأمريكي بمناقشة الأمر معكم وهم على أشد الاهتمام أن يروا ممثلاً من حكومة السودان في مقديشو لو أمكن. وكذلك الفرنسيون طلبوا منا ما يمكن عمله لتشجيع السودان ليعمل باهتمام أكثر حيث سيكون أثره مستمراً... أمل أن يقدم السودانيون بعض المساعدة على الرغم من متطلباتهم داخل السودان والنقص في الأشخاص المؤهلين^(٢٤).

يتضح إذاً الدور الذي ظل السودان يؤديه في تعليم وتأهيل الصوماليين للأسباب آنفة الذكر. وقد امتد هذا الدور في فترة ما بعد استقلال البلدين طوال فترة الحكم الوطني^(٢٥).

كما يتضح أيضاً عمق الروابط الثقافية بين اليمن والسودان والدور الكبير الذي أدّته كلية غردون ومعهد بخت الرضا في تدريب وتأهيل الطلاب والمعلمين في دول الجوار.

الحواشي

(١) أنشئت كلية غردون في عام ١٩٠٢م، وقام بافتتاحها اللورد كتشنر بنفسه وبدأت بها الدراسة في عام ١٩٠٣م، كان الغرض من إنشائها هو تمكين السودانيين في المشاركة في إدارة شؤون بلادهم، ثم خلق نوع من التعليم المهني لیساعد الحكومة البريطانية في إدارة شؤون السودان. وجاءت التسمية تخليداً لذكرى الجنرال غردون الذي اغتاله المهديون في عام ١٨٨٥م، يتم القبول للكلية من المدارس الأولية، كانت مدة الدراسة في كلية غردون خمس سنوات، ويدرس القضاة والمعلمون منهجاً مشتركاً في السنوات الثلاث الأولى يشمل دراسات دينية ونحواً وقراءة وإنشاء وإملاء ودروساً في الجبر والحساب والتاريخ والجغرافية واللغة الإنكليزية ويقسم الطلاب بعد ذلك إلى قسمين حيث يركز القضاة على الدراسات الدينية بينما يمنح المعلمون مقررات عامة.

انظر: محاسن عبد القادر حاج صافي، نشأة كلية الآداب وتطورها بجامعة الخرطوم، بحث غير منشور قدم لمؤتمر عمداء الآداب، سورية، ٢٠٠٤م، ص ٤-١.

فدوى عبد الرحمن علي طه، أستاذ الأجيال، عبد الرحمن علي طه، ١٩٠١-١٩٦٩م، بين التعليم والسياسة وأرجي، دار جامعة الخرطوم للنشر، ٢٠٠٤م، ص ٥٣-٥٥.

(٢) اقترحت اللجنة التي كونها الحاكم العام لدراسة النظام التعليمي في شمال السودان إنشاء كلية لتدريب معلمي المدارس الأولية تكون أهدافها إتاحة تعليم فوق الأولى تكون مدته خمس سنوات على أن تكون السنة الأخيرة للتدريب الميداني وتوفير دروس باللغة الإنكليزية وتنظيم فرق تجديدية للمدربين وإيجاد فرص للعمل اليدوي والتدريب الزراعي - فتحت مدرسة جديدة بالقرب من الدويم في محافظة

النيل الأبيض في سبتمبر ١٩٣٤م، ونقلت مدرسة تدريب مدرسي المدارس الأولية العرفاء من الخرطوم إلى بخت الرضا النبض الأساسي للابتكار التعليمي في السودان. توسعت عام ١٩٣٦م، إلى معهد يضم عدداً من المدارس تشمل مدرسة أولية لتدريب الطلاب وتجربة المناهج الجديدة، ومدرسة لتدريب المعلمين الذي اختيروا من كل مناطق السودان للتدريب كمدرسي مدارس أولية، ومدرسة وسط الدويم، ونظمت بخت الرضا فترات تدريبية للمعلمين الذين كانوا يحضرون في مجموعات صغيرة من مختلف أنحاء السودان وتوجهات في طرق التدريس.

انظر: فدوى عبد الرحمن علي طه، المصدر نفسه، ص ٦٥-٦٧.

(٣) دار الوثائق المركزية، الخرطوم، الداخلية، السكرتير الإداري 17.C.7 ، الخرطوم، ١٩٤٣/٩/٢٤م.

(٤) أبو فريد نزار محمد عبده غانم القرشي، جسر الوجدان بين اليمن والسودان، (الطبعة الأولى: صنعاء، ١٩٤٤م)، ص ٨٥.

(٥) قدم محبوب عمر باشري ترجمة للأستاذ عبد القادر أوكير في كتابه، رواد الفكر السوداني، (دار الفكر العربي، ١٩٨١م)، ص ٢٢٣-٢٢٨.

(٦) أبو فريد نزار محمد عبده غانم القرشي، المرجع السابق، ص ٨٦.

(٧) محمد سعيد القدال، الشيخ القدال باشا معلم سوادني في حضرموت، ومضات من سيرته، (دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ١٩٩٧م)، ص ٥٣.

(٨) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٩) أبو فريد نزار محمد عبده غانم القرشي، المرجع السابق، نقلاً عن سعيد عواض، سبعون عاماً من المسرح في اليمن، (دار الجاحظ، دمشق، ١٩٨٣م).

(١٠) المصدر نفسه، ص ٨٨-٩٥، كذلك دار الوثائق المركزية، الخرطوم، داخلية، السكرتير الإداري، 17.C.7.

(١١) المصدر نفسه، ص ٩٠.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٩٠-٩٤.

(١٣) محمد سعيد القدال، المرجع السابق، ص ٧٦-٧٧،

(١٤) المصدر نفسه، ص ٨١.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٨٤، نقلاً عن الأخبار، ٣١، ١٥/١٠/١٩٥١م.

(١٦) علي عبد الكريم وآخرون، تاريخ التعليم في الصومال، (مقديشو، ١٩٧٨م)، ص ٥٦.

(١٧) M.S. Fawzia Yusuf H. Adam "The Establishment of the University of Hargeisa", **Final Report**, (Nordic Conference on Somaliland - Nov. 23-24, 1994), Helsinki, Finland, JOM, International Organization for Migration, 2000 p. 153.

(١٨) محاسن عبد القادر حاج الصافي، "العلاقات السودانية الصومالية"، علاقات السودان الخارجية: البعد العربي الإفريقي، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، ١٩٩١م، تحرير د. مدني محمد أحمد، ود. حامد عثمان، ص ١٧٦.

(١٩) دار الوثائق المركزية، الخرطوم، داخلية، السكرتير الإداري، 17.C.7.

CO/84 7 2231 Memo. From Liet Hamilton and Major Erskine To H. (٢٠)
M. Secretary of State, Foreign Affairs, with copy to H. M.

Secretary of State, Colonial Affairs, War Office 28 April 1941

CO/535/15216 Minutes of the Meeting of Sir Thomas Lloyd with (٢١)
Somalis in Berbera, 28/11/1949.

CO/8/ 22/ 1585 Secret Memo (٢٢)

Ibid, also CO/8/22/1 585 Conference for Department of Education, (٢٣)
Daresalam, Tanganiyka, 6 April 1959.

CO/8/22/1585 No. 128 Tel from Foreign Affairs London to (٢٤)
Khartoum 8 April 1958.

(٢٥) انظر: محاسن عبد القادر حاج الصافي، العلاقات السودانية الصومالية، ص

Mahasin el-Safi, "History of Somali Commuinties in ١٧٧-١٧٨. ثم
the Sudan, since the First World War "Sudan Studies, No. 29, June
2002 pp. 22-24.